النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل العاشر : الفنون الجميلة بين نصارى العرب (تابع)

٢ و ٣ التصوير والنحت

يظهر الجمال في البناء بحسن رسمه وبراعة هندسته وانتقاء موادّه ووحدة أقسامه واتقان نظامه . امّا في فنّي التصوير والنحت فانّ الجمال يلوح بتمثيلهما لمواليد الطبيعة الثلثة جمادها ونباتها وحيوانها فيخرجها المصوّر بهيئاتها والوانها وملامحها وعواطفها فيكاد يحييها بقلمه الساحر . ويجسّمها النحّات فيظهرها بنتوّاتها وتداويرها الطبيعيّة فيُحكم صورة وجدانها كأنها لا ينقصها سوى الحركة والنطق

وكما شاع بين نصارى العرب في الجاهليّة فنّ هندسة البناء كذلك استخدموا فنّي التصوير والنحت . واوّل شاهد يمكن الاستدلال به ما ورد في الشعر الجاهليّ من ذكر الصور والدُمى والتماثيل في بيَع النصارى واديرتهم فأعجبوا بجمالها ونقوشها البديعة حتّى ضربوا بها المثل في الجمال فقالوا (الميداني ١ : ٣٠٠) : «احسن من دمية» . وقال عديّ بن زيد (شعراء النصرانيّة ص ٤٥٥) :

كدُمى العاج في المحاريب او كالـ ـبَيْض في الرَوْض زهرُهُ مُستنيرُ

وقال عبدالله بن عَجْلان (الاغاني ١٩ : ١٠٢)

غرّاء مثل الهلال صورتُها ومثلُ غزالٍ بيعة الذّهب

وقال الاحوص (الاغاني ٤ : ٤٩ والشريشي ١ : ٢٩١) :

كأنّ لُبْنى صبيرُ غادية او دُمية زُيّنت بها البيَعُ

ومثلهُ للاخطل (ديوانهُ ص ١٢) :

حليٌّ يشبُّ بياضَ النَّحرِ واقدُهُ كما تُصوَّرُ في الدَّيرِ التماثيلُ

وقال عُمَر بن ابي ربيعة (الكامل للمبرد ص ٣٧٠):

دميةٌ عند راهبٍ ذي اجتهادٍ صوَّروها في جانب المحرابِ

وقال امية بن ابي عائذ (ديوان الهذليين ص ١٧٧):

او دُمْيةٌ المحراب قد لعبتْ بها ايدي البُناةِ بزُخرفِ الإفراصِ

وقال الاعشى (لسان العرب ٦: ١٤٤) وبنى فعلين من لفظ الصلبان والصُّور:

وما ابنُبانيٌّ على هيكلٍ بناهُ وصلَّبَ فيهِ وصارا

ومن العجب انَّ بعض الشعراء اذ رأوا هذه التماثيل في كنائس النصارى دعوها اصناماً واوثاناً. قال ابو قطيفة (معجم البلدان لياقوت ٣: ٦٦١)

ولَحيٌّ بين العُزَّيضِ وسَلْعٍ حيث أرسى اوتادَهُ الإسلامُ
كان أشفى اليَّ قرب جوارٍ من نصارى في دورها الاصنامُ

وروى في المفضليات (ed. Lyall ص ٥٤٩):

يطوفُ العُفاةُ بأبوابهِ كطَوْفِ النصارى ببيتِ الوَثَنْ

قالوا: اراد بالوثن الصليب. وكانوا ينصبونهُ في وسط الكنائس. وقال بشر بن ابي خازم يمدح بني الحدّاء النصارى (البيان للجاحظ ٢: ٧١)

لله درُّ بني حِدَّاءَ من نَفَرٍ وكلُّ جارٍ على جيرانهِ كَلِبُ
اذا غدَوْا وعصيُّ الطلح ارجلهم كما تُنصَّبُ وسْطَ البيعةِ الصُّلُبُ

فهذه الشواهد وغيرها مثايا تدلُّ كلُّها على شيوع فنّ التصوير ونحت التماثيل بين نصارى العرب. قال صاحب تاج العروس (٨: ١١١): «التمثال الشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْق من خلق الله عزَّ وجلَّ .. والتماثيل هي صور الانبياء. وكان التمثيل مباحاً في ذلك الوقت..»

وممَّا تكرَّر ذكرهُ في الشعر الجاهليّ نقش النصارى لكتبهم الدينيّة كقول رؤبة (ديوانهُ ص ١٤٩):

انجيلُ أحبارٍ وحَيٍّ مُنَسْنِسُهْ ما خطَّ فيهِ بالمِداد قَلَمُهْ

وكقول الرقّش يصف رسوم الدار:

الدارُ قفرٌ والرسومُ كما رُقِّشَ في ظهر الادِيمِ قَلَمْ

وقال في المفضّليات (ص ٦٩٨) :

كتابُ مُحبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ يُنَمِّقُهُ وحاذرَ ان يُباعا . .

وقد ورد في تواريخ العرب القديمة ذكر آثار دينيّة من النحت والتصوير عُني بها النصارى في انحاء الجزيرة . فمن ذلك ما رويناهُ في عدد سابق (ص ٧٠٠) عن نقوش وتصاوير القُلَيس التي زان بها ابرهة تلك الكنيسة الشهيرة . وقد ذكر بعضهم تماثيلها فعدَّها لجهله اصناماً (اطلب في معجم البلدان وصف القليس وما قال هناك عن كُعَيْت ٤ : ١٧٢)

وما قيل عن كنيسة صنعاء يصحّ عن بيعة نجران المعروفة بكعبة نجران التي عُني ببنائها بنو عبد المدان فان قدماء الكتبة يشيدون بمحاسنها ولعلّ صورها اتى بها الحبشة بعد محاربتهم لذي نوّاس وفتحهم نجران فانّ الحبش كانوا يحسنون التصوير . وفي الحديث الاسلامي انّ بعض نساء محمّد الواتي كنّ هاجرْنَ الى ارض الحبشة ذكرْنَ امامهُ حسن كنيسة مارية هناك وتصاويرها . فقال لهنّ محمّد وهو في مرض الموت : «اولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثمّ صوّروا فيهِ تلك الصور» (اطلب البخاريّ في باب المساجد)

وقد ورد في معجم البلدان لياقوت (٢ : ٧٠٣) ذكر كعبة نجران وصورها مع شهادة لعموم نصارى العرب باتخاذ الصور في كنائسهم . قال في وصف دير نجران :

«موضع باليمن لآل عبد المدان بن الديّان من بني الحارث بن كعب . . . بنوهُ مربّعاً مستوي الاضلاع والاقطار رفيعاً عن الارض يُصعَد اليهِ بدرجة على مثال بناء الكعبة فكانوا يحجّونهُ وهم طوائف من العرب ممّن يحلُّ الاشهُرَ الحُرُم ولا يحجُّ الكعبة ويحجّهُ خثعم قاطبةً وكان اهل ثلاث بيرتات يتجارون في البيع وربّما اهل المذر بالحيرة وغسّان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران وبنوا دياراتهم في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران ويجعلون في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور وكان بنو الحارث بن كعب على ذلك الى ان جاء الاسلام »

ومن التصاوير التي لا تزال آثارها الى يومنا في جزيرة العرب ما تزدان به كنيسة طورسينا الراقية الى القرن السادس للمسيح فانّ فيها من النقوش والفسيفساء والصور المختلفة اشياء كثيرة اتّسع في وصفها زوّار ذلك المقام الجليل وهي لمصوّرين وصنّعة بزنطيين

ارسلهم يوستنيانوس الملك لتشييد تلك المقامات وتزيينها بضروب النقوش

وكذلك مكّة كان للمصوّرين والنحّاتين النصارى فيها آثار ذكرها اقدم مؤرخ لتلك المدينة وهو ابو الوليد الازرقي في كتاب اخبار مكّة (ص ١١٠ — ١١١ طبعة ليبسيك) قال يذكر بناء قريش للكعبة في الجاهليّة :

«وزوّقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها وجعلوا في دعائمها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة وكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن (١ ... وصورة عيسى بن مريم وامّه وصور الملائكة عليهم السلام اجمعين فلمّا كان يوم فتح مكّة دخل رسول الله صلعم البيت... وامر بطمس تلك الصور فطُمست ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وامّه عليهما السلام وقال: امحوا جميع الصور إلّا ما تحت يدي. فرفع يديه عن عيسى بن مريم وامّه ...»

ثمّ روى عن عطاء بن ابي رباح انهُ ادرك في البيت تمثال مريم مزوّقاً في حجرها عيسى قاعداً مزوّقاً وذلك « في العمود الذي يلي الباب » وانّهُ « هلك في الحريق في عصر ابن الزبير ». وروى عن ابن شهاب (ص ١١٣) « انّ امرأة من غسّان حجّت في حاجّ العرب فلمّا رأت صورة مريم في الكعبة قالت : بأبي وامّي انتِ لعربيّة فامر رسول الله صلعم ان يمحوا تلك الصور الّا ما كان من صورة عيسى ومريم ». وذكر الازرقيّ ايضاً (ص ٤٥٠) انّ في مكّة « داراً لسعد القصير غلام معاوية بناها سعد بالحجارة المنقوشة فيها التماثيل مصوّرة في الحجارة ». فلا شكّ انّ هذه التماثيل والصور اصطنعها النصارى في عهد الجاهليّة. كما عُهد اليهم في زمن المهدي بناء مسجد مكّة وتزويقهُ. قال المقدّسي في كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص٧٣) يذكر المهدي : «المسجد اليوم من بنائهِ وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء، حُمل اليها صنّاع الشام ألا ترى اسماءهم عليهِ».

والى هؤلاء الصنّعة النصارى تُعزى ايضاً النقوش والتصاوير المختلفة بالفسيفساء

١) ذكر المسعودي في مروج الذهب (٤: ١٢٦) : « انهُ لما اضرمت الكعبة بالسيل سُرق منها غزال من الذهب وحُلي وجواهر فنقضتها قريش وكان في حيطانها صُور كثيرة بانواع من الاصباغ عجيبة منها صورة ابراهيم الخليل في يدهِ الازلام ويقابلها صورة اسمعيل ابنهِ يجير بالناس مفيضاً والفاروق قائم على رؤس الناس يقسّم فيهم. وبعد هذه الصورة صور كثيرة من اولادهم الى قُصيّ بن كلاب وغيرهم في نحو ٦٠ صورة مع كلّ واحدة من تلك الصور إلهٌ صاحبها وكيفيّة عبادتهِ وما اشتهر من فعله»

التي مرّ لنا ذكرها في الجامع الاموي في دمشق وفي الاقصى في القدس الشريف وفي جامع النبيّ في المدينة . وكذلك النقوش والتصاوير التي نشرنا اليها في الهندسة المدنيّة في قصور المشتّى وقُصَيْر عمرة والأُخيضر فانّها كلّها اعمال صنّعة يُدعون في الغالب روماً وهم من نصارى الشام ومصر والعراق

وممّا وقف عليه ارباب العاديّات والسيّاح في الحقبة الاخيرة كنائس قديمة بعضها مطمور في الارض يرتقي عهدها الى القرون الثلثة قبل الاسلام في العراق وما بين النهرين وجهات الاناضول والارمن على جدرانها تصاوير شتّى يدلّ بعضها على براعة اصحابها في الفنّ ونُقلت رسومها في المجلّات الاثريّة او في تآليف مستقلّة

وكان صنّعة الحياكة ينسجون الاقمشة ويزينونها بالصلبان والتصاوير فشاعت بين العرب وقد ورد ذكرها غير مرّة في اخبار نبيّ الاسلام وفي الحديث (اطلب مجلّة المنار في مجلدها العشرين ص ٢٢٠—٢٣٠) فمن ذلك ما روى عن مسلم انّ عائشة سترت جانب بيتها بقرام اي ستر احمر عليه تصاوير وتماثيل وانها «اشترت نُمرقة عليها تصاوير «وانّها «سترت بابها بدرنوك اي طنفسة فيه الخيل ذات الاجنحة» . وكانت هذه الانسجة يحيكها اهل اليمن النصارى كما سترى فيزينون نقشها بالتصاوير

وكانوا يصوّرون على بعضها الصليب وصور القديسين ويتّخذونها كألوية كما ذكرنا سابقاً (ص ٥٤١) عن راية بني تغلب المسمّاة بالمار سرجس . ومن هذا القبيل راية العُقاب التي اتّخذها خالد بن الوليد في اوّل عهد الاسلام (اطلب ياقوت ٣ : ١٩٠ — ٦٩١) دُعيت بذلك لصورة عُقاب كان منسوجاً فيها

وممّا يدخل في هذا الباب نقود نصرانيّة عليها صور ملوك وقديسين اتّخذها اولياء الامور والخلفاء في اوّل الاسلام فطبعوا عليها شعارهم او عبارة قرآنيّة يوجد منها شيء في المتاحف الكبرى . وقد ذكرنا في عدد سابق نقوداً السلجوقيين واللاتقيين مصوّرة فيها صور ملوك الروم او اوليائهم وبعضها يمثّل شخص السيّد المسيح وامّه الطاهرة (ص ٧٩٩)

وبالاجمال يمكننا القول بانّ فنّ التصوير لولا الصنّعة النصارى في انحاء الشرق كان فُقد بعد ظهور الاسلام لانّ اصحابهُ استنكفوا من صناعة التصوير لما وجدوا فيها من العثرة وخطر الشرك واستنادًا الى ما رُوي في الحديث : «ان الملائكة لا تدخلُ بيتاً فيه

كاب او تصاوير «وانهُ » اشدّ الناس عذاباً عند الله المصوّرون » وانّ « كلّ مصوّر في النار» فكسد لذلك فنّ التصوير بين المسلمين الّا العجم منهم الى أن عادوا فاتخذوهُ زينةً وفرقوا بين صور العبادة وغيرها . ولا شكّ انّهم التجأوا الى النصارى فتعلّموها منهم . وبرع فيها بعض المسلمين كالكتامي والنازوك والقصير وابن العزيز الذين ذكرهم المقريزي في كتاب الخطط (٢ : ٣١٨) في وصف جامع القرافة وذكر شيئاً من اعمالهم . وقد قال العلّامة غايه (Al. Gayet) في كتابه الصناعة العربيّة (ص ٢٥٠—٢٥٢) «انّ ما يوجد في مصر من آثار التصوير والحفر والاشغال الخشبية ونقوش الانسجة والزجاج كلّها مأخوذة عن الصنّعة الاقباط الذين علّموا هذه الفنون المسلمين في مصر كما يقرّ بهِ المسلمون انفسهم » (لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

Le Vᵉᵉ de Noailles : Souvenirs d'Amérique et d'Orient. *Paris*, 1920, *in*-16, *pp.*238 . *Edit. franç. de la Nouvelle Revue Nationale*

تذكارات اميركة والشرق

الڤيكونت دي نوايل من مشاهير كتبة التاريخ له فيهِ آثار حسنة نالت امتيازات الاكادمية الفرنسويّة . والكتاب الحاضر هو مجموع عدّة مقالات نشرها في جرائد فرنسة ومجلّاتها في سنين مختلفة عن اميركة وعن مصر ضمّ شتاتها في هذا الكتاب خوفاً من ضياعها وكفى بذلك تنويهاً بفوائدها وبفضل كاتبها

Lasies (J.): La Tragédie Sibérienne. *in*-16, *pp.* 256 *et* 22 *Photogr.*, *Paris. Edit. Françaises illustrées*

المأساة السيبريّة

انّ الفوضى التي تغلّبت على بلاد روسية عموماً وعلى مقاطعات سيبرية خصوصاً